الفلسفة والتيولوجيا في فكر مارتن هيدغر

تأليف: فيليب كابال
ترجمة: الدكتور فؤاد مليت

التيولوجيا والفينومينولوجيا

كتب هيدغر يقول: "التيولوجيا علم وضعي، وبما هي كذلك فهي تختلف عن الفلسفة بنحو مطلق؛ ويتعين علينا أن نسأل بعدها: كيف للتيولوجيا، وهي المختلفة عن الفلسفة بإطلاق، أن تنتسب إليها؟ ولقد يلزم عن أطروحتنا أن التيولوجيا، من حيث هي علم وضعي، أشد قربا إلى الكيمياء وإلى الرياضيات، منها إلى الفلسفة. وعلى هذا النحو الحاد نحن نصوغ علاقة التيولوجيا بالفلسفة".

إن الفكرة العامية* التي يناهضها هيدغر، رأسا، هي الفكرة التي تجعل الفلسفة والتيولوجيا كيفيتين متقابلتين في تأويل العالم الإنساني، إحداهما محكومة بالإيمان والتنزيل، والأخرى بالعقل والعرفان؛ بيد أن الاختلاف بين الفلسفة والتيولوجيا ليس اختلافا جهويا أو صوريا، بل هو جذري.

أ- العلم الأنطيقي والعلم الأنطولوجي

هذه الجذرية إنما تقوم في كونهما ينتميان إلى نمطي "علم" مختلفين بإطلاق. ولكي نتمكن من فهم الأمر، علينا أن نسترجع عنوان المحاضرة الأصلي: "وضعية التيولوجيا وعلاقتها بالفينومينولوجيا"2. إنه يحيل على نحو ظاهر إلى حدود المناظرة التي انخرط فيها هيدغر، وهي المتعلقة بماهية الفينومينولوجيا. إن الفقرة السابعة من الكينونة والزمان- المنشور في السنة نفسها- تحُدُّ الفينومينولوجيا بوصفها العلم الذي شأنه "البيان عمَّا ينكشف

انطلاقا من ذات نفسه، كما ينكشف انطلاقا من ذات نفسه"3. فهذا التحديد الأساسي يميز الفينومينولوجيا عن التيولوجيا جذريا، بل وعن كل أصناف الصنائع المعرفية أو العلوم"logie" toute autre؛ فهذه العلوم إنما هي منشأة انطلاقا من موضوعاتها وبالنظر إلى محتوياتها. وأما في الفينومينولوجيا فالأمر يتعلق بالإحالة على "كيف الإبانة"4، وعلى ما يتعين عليها "الإبانة عنه"5. وعلى هذا، فليس تعارض الفلسفة والتيولوجيا تعارض "رؤيتين للعالم" متنافستين، فإن العلاقة التي بين العلمين، في هذه المسألة تحديدا، إنما تأخذ شكل صراع على الصعيد الأوحد "لصرامة الاقتناع وللإعلان الخاص عن تصور العالم" المتبنى6. وإن صراعا كهذا لا يمكنه أن يفضي- متى أعوز "الحجاج العلمي"- إلا إلى ما لا يمكن الحسم بشأنه indécidable.

وأولى أن تفهم هذه العلاقة- فيما يقوله هيدغر- بما هي صلة بين "علمين". وإن هذا الفهم ليقتضي- على الأقل- ضربا من الفهم السابق لمفهوم العلم ذاته. وذلك ما ينجم عنه هذا التعريف "الصوري": "العلم هو الانكشاف المقوِّم لميدان هو في ذاته مغلق على الكائن في كل مرة- نعني على الكينونة؛ انكشاف غايته هو تحققه الخاص"7. هذا الانكشاف يجري بحسب كيفيات مخصوصة بميادين الموضوعات المختلفة.

إن الفكرة العامة والصورية للعلم- المفهومة على هذا النحو- يلزم عنها نمطان من العلم. أما الأول فيتضمن العلوم الأنطيقية الوضعية التي تشتغل على كائن معطى سلفا، على موضوع positum، وهي تمارس هذا الاشتغال من خلال نظر موجه إلى الكائن. ولكي يستأهل علم ما وصفَ الوضعي، عليه أن يفي بشرائط ثلاثة هي، بحسب القول الهيدغري: "1- أن يكون الكائن منكشفا أصلا على نحو من الوجود السابق، بحيث يمكنه أن يُتَّخذ موضوع موضعة، أو يجري وضعه موضع استشكال نظري"؛ "2- أن يكون هذا الموضوع positum- وقبل كل تناول نظري، أي على نحو قبل

علمي- موصولا بالكائن"؛ "3- أن هذا السلوك ما قبل العلمي بإزاء الكائن المعطى [الطبيعة، التاريخ، الاقتصاد، المكان، العدد...] قد وقع إضاءته وتوجيهه من قِبَل فهم الكينونة"8. هاهنا نجد رجع الصدى الدقيق لِما تقوله الفقرة الثالثة من الكينونة والزمان بصدد العلوم المختلفة المرتبطة بقطاع محدد من "كلية الكائن": "التاريخ والطبيعة والمكان والحياة والدازين واللغة... إلخ". إن تحديدا كهذا إنما يتأتى من تجربة ومن تفسير قبل علميين متعلقين بـ"قطاع من الكينونة"، وهو ما يسمح بانبثاق "وضعية" مخصوصة في كل مرة9.

وعلى عكس العلوم الأنطيقية، لا يشتغل علم الكينونة- الذي هو الفلسفة على التحقيق- بأية "وضعية". وعلى هذا النحو تُخَطُّ، بين نمطي العلم، الحدود الأشد صرامة: إن العلم الأنطولوجي إنما يصدر لا عن نظر مشتغل بوجهة من "كلية الكائن"، بل عن تحولٍ "للنظر الذي يمضي من الكائن نحو الكينونة". هاهنا تتأسس معيارية "أولى" بمعنى ما، يتوجب تقويم كل علم انطلاقا منها.

المسألة إذن هي ما إذا كانت التيولوجيا تستجيب لهذه المعايير المفروضة للوضعية، من جهة أولى؛ وللعلمية، من جهة ثانية؛ وعلى أي نحو تتم هذه الاستجابة. حقا، لقد كتب هيدغر يقول: إنه يفهم التيولوجيا "بما هي تيولوجيا مسيحية"؛ ولكنه يردف قائلا: "وإن كان ذلك لا يعني أنه لا وجود لغير هذه"10. هذه الإشارة التي قد لا تحظى بعناية النظر، تجد تعزيزا في خطاب 8 أوت 1927 إلى إلزابيت بلوخمان، وهو الخطاب الذي يمكن أن يُقرأ بما هو عرْض لبواعث محاضرة مارس 1927. يشرح هيدغر في هذا الخطاب أن جعْلَ اللاهوت المسيحي المحاورَ الأوحدَ للفيلسوف هو أمر من شأنه أن يوقعنا في ضرب من فخِّ التقريظية11.

وحتى نتفادى مثل هذا الخطر، ينبغي أن يتسع النقاش ليمتد إلى الدين من حيث هو كذلك: "ولقد توجب عرْض مفهوم الفلسفة كلية، وأن يتم

مقابلته لا بالتيولوجيا فحسب، ولكن بالدين، وليس الدين المسيحي أيضا. إن الدين هو إمكانية أساسية للوجود الإنساني، حتى ولو كانت تختلف عن الفلسفة في كل شيء du tout au tout"12.

ثمة أمران نستفيدهما من هذا النص. أما الأول فإشارة دقيقة إلى وضع العلاقة الصارمة التي يريد هيدغر عقدها بين الفلسفة والدين؛ وأما الثاني فمتعلق بوضع الدين بإزاء مطالب الدازين: "إن الأمر ليتعلق بإمكانية أساسية للوجود الإنساني".

ولكي نفهم ما الذي يعنيه هيدغر بـ"الإمكانية الأساسية"، يتعين علينا الرجوع إلى الفقرة 53 من الكينونة والزمان. إن الإمكانية الأخص بالدازاين تتلقى تحديدا رباعيا: 1- إنها "غير متعلقة بشيء"13، في معنى أنها متحددة- وفقط- بكيانيته، أو قل ببنيته الأساسية؛ 2- إنها "غير ممكن تجاوزها"، وذلك إمكان قصيٌّ للوجود قد يكون من شأنه معه أن "يتخلى الدازاين عن نفسه"؛ 3- إنها "يقينية"، في معنى اليقين الذي تصير معه الإمكانية ذاتها ممكنة، لا في معنى الإمكان المتعلق بالكائن؛ 4- إنها "غير متعينة"14، أي أنها مفتوحة على "تهديد مستمر" صادر عن كيانيته. إن حقيقة الدين- بوصفها "إمكانية للدازاين"- لا تشكل نقيضة للفلسفة؛ وهاهنا محل استعادة السؤال عن خصوصية التيولوجيا.

ب- "موضوع" positum التيولوجيا

تترتب على هذا الأمر عدة نتائج على نحو مباشر. ذلك لأن كون التيولوجيا علماً أنطيقيا هو الذي يجعلها صناعة تختلف مطلقا عن الفلسفة: فإن هذه تقابل الأولى، من جهة أن تأملا أنطولوجيا يقابل علما أنطيقيا.

إن التيولوجيا باعتبارها علما أنطيقيا تشتغل على الكائن المخصوص بها- على موضوعها positum- وعليه تنبني. فالوضعية الخاصة بالتيولوجيا